لماذا عليّ؟

قراءة في ضوء العقل والنص والتاريخ

لماذا عليّ؟

قراءة في ضوء العقل والنص والتاريخ

رحلة عقلية
تبدأ من معرفة اللّه وحكمته،
وتنتهي إلى اكتشاف
أن الإمامة ليست خياراً فكرياً،
بل ضرورة يفرضها العقل
ويشهد لها النص

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل في كلامه نوراً وهدى، والصلاة والسلام على من نقل الرسالة وترك للأمة ميراث هداية لا يزول، محمد وآله الطاهرين.

هذه الرسالة ليست مجرد كتاب يُقرأ، بل دعوة للتفكر والتدبر، ومحاولة صادقة لفهم الطريق الذي رسمه الله للأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

إنها رحلة مركزة، تعرّف القارئ على حقيقة الإمامة بوصفها امتداداً طبيعياً للنبوة، وتكشف الانحرافات التي عصفت بالمسار الرسالي بعد وفاة النبي، رغم وضوح الأساس العقلي الذي يقتضي استمرار الهداية وعدم انقطاعها. ثم تنتقل بك إلى السؤال الأهم: كيف يمكن لكل إنسان أن يرتبط بمنهج الحق عملياً في حياته المعاصرة؟

هدف هذه الرسالة أن يرى القارئ الحقيقة كما هي، مستعيناً بالعقل الذي يهدي إلى أصل الحقيقة، وبالنصوص التي تؤكدها وتفصّلها، لا كما اعتاد عليها، وأن يميّز بين الحق والهوى، بين الهداية والتقليد الأعمى.

فإن كنت تبحث عن طريق النجاة، فستجد في هذه الصفحات سفينة الهداية التي لا يغرق من ركبها.

وإن كنت ممن يرضى بالتيه، فستكون لك صفحات تعلمك حدود الاجتهادات البشرية وتجارب التاريخ التي تعيدك إلى الحق إذا غفلت.

ها أنت على عتبة رحلة صادقة: بين التأمل في النصوص، وفهم الواقع، واختيار الطريق الذي لا يضل من سلكه، مسلك العقل والنص معاً.

المبحث الأول: الله الحكيم لا يخلق عبثاً.. والقيادة ضرورة فطرية

حين يتأمل الإنسان في هذا الكون الواسع، من أدق الذرات إلى أعظم المجرات، يجد نفسه أمام نظام مدهش لا يترك مجالاً للعبث أو الفوضى. إن انتظام الليل والنهار، ودقة حركة الأفلاك، وتناسق قوانين المخلوقات كلها تشير إلى حقيقة واضحة: أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا دبّره بإتقان.

ومن هنا يبرز أول سؤال عقلي يواجه الإنسان:

هل يمكن أن يكون هذا الخلق العظيم قد وُجد بلا غاية؟

أم أن وراءه حكمة مقصودة وهدفًا مرسومًا؟

إن العقل السليم يميل إلى الجواب الثاني؛ لأن الإتقان يدل على القصد، والنظام يدل على الحكمة.

معنى الحكمة:

الحكمة في أبسط معانيها: هي وضع الشيء في موضعه الصحيح، وفعل ما يحقق الغاية المقصودة بأفضل صورة.

فالحكيم لا يعمل عملاً عبثيًا، ولا يقوم بفعلٍ بلا هدف، بل تكون أفعاله مرتبطة دائمًا بمعنى وغاية.

ولهذا فإن الإنسان إذا رأى آلة دقيقة الصنع أدرك فورًا أن وراءها صانعًا قصد هذا النظام وأراده. فكيف إذا كان الحديث عن هذا الكون الهائل بكل ما فيه من دقة وتناسق؟

إن هذا الإحكام يدل دلالة واضحة على أن خالق الكون حكيم في خلقه وتدبيره.

الحكيم لا يخلق عبثًا

إذا ثبت أن الله حكيم، فإن من لوازم هذه الحكمة أن يكون خلقه قائمًا على غاية، لا على العبث.

فالعبث نقص، والله منزه عن كل نقص؛ ولهذا يستحيل عقلاً أن يخلق الإنسان بكل ما فيه من عقل وإرادة ثم يتركه سدى بلا هدف.

إن وجود الإنسان نفسه دليل على أن لحياته معنى، وأن وراء خلقه غاية ينبغي أن تتحقق.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة التي يدركها العقل، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فالحياة إذن ليست مجرد دورة بيولوجية للأكل والشرب والتكاثر، بل هي مسيرة ذات هدف ومعنى.

القيادة ضرورة فطرية كونية

قبل أن ننتقل إلى الحديث عن الهداية الإلهية، نجد أن واقع البشرية نفسه يشهد بحقيقة لا تقبل الجدل: الإنسان بطبيعته لا يستطيع العيش بلا قيادة.

هذه الحقيقة ليست وليدة دين معين، ولا نتاج ثقافة

بعينها، بل هي ضرورة فطرية أقرتها الأمم عبر التاريخ في كل زمان ومكان:

الأعراف القبلية: لا توجد قبيلة على وجه الأرض إلا ولها شيخ أو حَكَم يُرجع إليه في حل النزاعات وتسيير الأمور. وهذا ليس ترفًا ثقافيًا، بل ضرورة وجودية؛ لأن غياب المرجع يؤدي إلى الفوضى والصراع.

الدساتير والقوانين: حتى في أشد المجتمعات إلحادًا، نجد أن البشر يضعون لأنفسهم رؤساء وقوانين ومرجعيات يُطاعون، فما من نظام سياسي إلا وفيه رئيس أو ملك أو هيئة قيادية تُتخذ القرارات باسمها.

الانتخابات: في النظم الحديثة، تُجرى الانتخابات ليس لخلق القيادة من العدم، بل لاختيار الأفضل والأكفأ من بين المرشحين، وهذا اعتراف ضمني بأن القيادة ضرورة لا غنى عنها، وأن المعيار الأساسي هو الجودة والكفاءة.

شهادة اليهود: اليهود -وهم أهل كتاب- يؤمنون بضرورة وجود مرجعية عليا دينية مستمرة يسمونها "الحاخام"، وهي مؤسسة قيادية تستمر فيهم جيلاً بعد جيل؛ بل الأكثر من ذلك: إن القوى المعادية للرسالة تاريخياً تدرك خطورة "القيادة الرسالية الممتدة"؛ لأنها القيادة الوحيدة التي تمتلك

الشرعية والنص والمنهج. وهذا ما يفسر القلق التاريخي من أي تحرك يقوده أهل البيت عليهم السلام، لإدراكهم أن زوال الباطل مرتبط بالمنهج الأصيل الذي يمثله ورثة الكتاب.

هذه الشواهد تؤكد أن مسألة القيادة ليست اختراعًا إسلاميًا؛ بل هي حقيقة فطرية أقرتها كل الأمم، حتى التي لم تؤمن بالله.

والخلاف الحقيقي بين البشر ليس في أصل القيادة، بل في ثلاثة أسئلة جوهرية:

١. من يكون القائد؟

٢. كيف يُختار؟ (بشريًا أم إلهيًا)

٣. ما هي مواصفاته؟

وهذا ما سنبحثه في المباحث التالية.

حاجة الإنسان إلى الهداية

إذا كان الله الحكيم قد خلق الإنسان لغاية، فإن من مقتضى حكمته أن يبيّن له الطريق الذي يوصله إلى تلك الغاية.

تأمل هذا المثال البسيط: الذي يصنع آلة دقيقة لا يتركها دون دليل استعمال، حتى لا تُستعمل على غير الوجه الذي صُنعت له. فكيف بالإنسان الذي هو أعقد من كل الآلات؟ هل يعقل أن يتركه خالقه دون دليل يرشده إلى كيفية تحقيق الغاية من وجوده؟

بل إن الله الذي منح الحيوانات غريزة تهديها إلى ما يصلحها وتحفظ بقاءها، من باب أولى أن يمنح الإنسان – وهو المخلوق العاقل المكلف – هداية أرفع وأوضح.

إن الإنسان بحاجة إلى هدايةٍ تعلو على اختلاف البشر، هدايةٍ تضع له المعايير الصحيحة للحق والعدل، وتبين له كيف يعيش الحياة وفق الغاية التي خُلق لها.

الرسالات الإلهية

ومن هنا تظهر حكمة إرسال الرسل، فالرسول ليس مجرد ناقلٍ للأخبار، بل هو المبيّن لمنهج الحياة، والمرشد إلى الطريق الذي يحقق للإنسان غاية وجوده. إنه ذلك "الدليل" الذي يمد يده للتائه في مفازة الحياة، و"النور" الذي يضيء له الطريق.

إن الرسالات الإلهية تمثل الجسر الذي يصل بين حكمة الخالق وحاجة المخلوق إلى الهداية. وبها تقوم الحجة على الإنسان، وتستقيم له طريق الحياة.

ولهذا قال الله تعالى:﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

هداية مستمرة لبشرية متجددة

لكن التأمل في طبيعة الرسالة الإلهية يقودنا إلى ملاحظة مهمة: هذه الرسالة لم تكن موجهة إلى جيل واحد فقط، بل

جاءت لهداية البشرية جمعاء، جيلاً بعد جيل، حتى قيام الساعة.

فالقرآن الكريم لم ينزل لقوم مخصوصين في زمن مخصوص فحسب، بل هو ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ في كل عصر ومصر. والشريعة الإسلامية لم توضع لتنظيم حياة مجتمع مؤقت، بل جاءت لتكون منهج حياة شاملًا ممتدًا عبر الزمن.

هذا الامتداد الزمني للرسالة يطرح تساؤلاً عقليًا جديدًا: إذا كان الله قد أرسل الرسل ليكونوا هداة للبشر في حياتهم، فكيف يُحفظ هذا الهدي الإلهي بعد رحيل الرسول عن الناس؟

إن نفس المنطق العقلي الذي قادنا إلى الإيمان بضرورة الرسالة، يقودنا إلى التساؤل عن ضرورة استمرار هذه الهداية بشكل يحفظها من الضياع والتحريف.

وهنا لا يقف الإنسان أمام فكرة مجردة، بل أمام مصيرٍ يحدد طريقه في الهداية أو الضياع.

خلاصة المبحث

وبهذا نصل إلى نتيجة أولية واضحة:

- الله حكيم، وأفعاله كلها قائمة على الغاية والحكمة.
- والحكيم لا يخلق عبثًا، بل لكل فعلٍ منه هدف مقصود.
- وخلق الإنسان بهذه الأدوات (العقل، الإرادة، الشعور)

يقتضي وجود هداية ترشده إلى غاية حياته.

- وهذه الهداية تجسدت في إرسال الرسل وإنزال الرسالات.
- وهذه الرسالة بطبيعتها موجهة لكل البشر وفي كل الأزمنة، مما يثير سؤال الحفظ والاستمرارية بعد الرسول.
- والأهم: أن القيادة ليست مجرد مطلب ديني، بل ضرورة فطرية أقرتها البشرية جمعاء في كل عصر، وهو ما يؤكد أن الإسلام جاء متناغمًا مع الفطرة لا مخالفًا لها.

السؤال الذي ينتظر إجابة

وهكذا نصل إلى السؤال المحوري:

إذا كان الله قد أرسل رسولًا ليبين للناس منهج حياتهم، فكيف يُحفظ هذا المنهج بعد رحيل ذلك الرسول؟

فمن يعطيك دليل الاستعمال لآلة صنعها، هل يعقل أن يتركك بعد ذلك تتخبط في فهمه وتطبيقه بلا مرجع ترجع إليه؟

هل من الحكمة أن يُترك هذا الدين العظيم بلا مرجعية تحافظ عليه وتحميه من التحريف والضياع؟

المبحث الثاني: شمولية التشريع واستمرارية النظام.. واصطفاء الله لقيادة الهدى

انتهينا في المبحث السابق إلى أن الحكيم الذي خلق الإنسان لغاية، لا بد أن يوفر له "دليل الهداية"، وأن القيادة ضرورة فطرية أقرتها البشرية جمعاء. واليوم، حين نتفحص هذا الدليل (الشريعة الإسلامية)، نجد ميزةً تبهر العقول، وهي "الشمولية الدقيقة". فهل يمكن لهذه الشمولية التي اعتنت بأدق تفاصيل حياة الفرد، أن تغفل عن أهم ركيزة في حياة المجتمع؟

الشمولية: مقتضى العناية الإلهية

من يقرأ في أحكام التشريع الإلهي، يجد أنه لم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا ووضع له ميزاناً. فقد نظم العلاقة بين العبد وربه (العبادات)، وبين الإنسان وأخيه الإنسان (المعاملات والحقوق)، وحتى علاقة الإنسان بجسده وبيئته.

إن هذا الاستقصاء التشريعي ليس مجرد "قائمة قوانين"، بل هو تجسيد للُّطف الإلهي الذي يرافق الإنسان في كل سكناته وحركاته؛ لضمان عدم وقوعه في التيه أو العبثية التي نفيناها في المبحث الأول.

تناسب الأهمية مع العناية

هناك قاعدة عقلية تقول: "كلما عظم الشيء، كانت العناية

به أوجب".

فإذا رأينا الشريعة قد اعتنت بآداب الطعام، وتفاصيل الطهارة، وتنظيم البيع والشراء، وهي أمور جزئية، فكيف يتصور العقل أن تهمل هذه الشريعة مسألة "المرجعية والقيادة" من بعد النبي؟

ولو جاءنا إنسان فقال: "الشريعة نظمت لي كيف آكل، وكيف أتوضأ، وكيف أبيع وأشتري، لكنها تركت لي أمر القيادة لأهواء الناس واجتهاداتهم المتضاربة"، لقلنا له: هذا تناقض لا يليق بحكمة من شرع هذه الأحكام الدقيقة.

فالقيادة هي القطب الذي تدور عليه رحى الدين، وبدونها يضطرب النظام وتتشتت الأفهام. إنّ ترك ركن القيادة بلا تنظيم، هو بمثابة بناء قصر عظيم بأساسات هشّة؛ فكل الأحكام التفصيلية (الفروع) لا قيمة لها إذا انهار الأصل الذي يحميها ويطبقها. فهل يُعقل أن يُفصّل "دليل الاستعمال الإلهي" في الفروع، ويترك "الركن الأساس" للفراغ أو لآراء البشر المتباينة؟

حفظ المنهج: من "النص" إلى "التطبيق"

وهذا التناسب بين أهمية الشيء والعناية به يقودنا إلى حقيقة أخرى: أن مجرد وجود النص لا يكفي، بل لا بد من

حافظ له.

إن الشريعة -مهما كانت متكاملة في نصوصها- تظل صامتة تحتاج إلى من يُنطقها. فالنصوص وحدها لا تنطق بنفسها، بل تحتاج إلى من يفهمها الفهم الصحيح ويبينها للناس. وتحتاج أيضاً إلى من يحميها من التأويلات الجاهلة والتحريفات المغرضة.

إن حكمة المشرّع تقتضي أمرين:

١. وجود المنهج (القرآن والسنة): وهو ما تحقق فعلاً.

٢. وجود الحافظ للمنهج: وهو الشخص الذي يمتلك المؤهلات التي تجعل فهمه وعمله حجةً كفهم النبي وعمله (في غير الوحي)، ليكون امتداداً طبيعياً له في تبيين هذا المنهج وتطبيقه.

فبدون "الحافظ"، يصبح المنهج عرضةً للضياع، وبدون "المطبق"، تظل الأحكام نظرياتٍ لا تجد طريقها للواقع. وهذا التبديد للمجهود النبوي يتنافى مع أصل الحكمة الذي قررناه.

سنن الله في اصطفاء الأسر

من سنن الله في خلقه أنه يصطفي من يشاء لحمل رسالته وقيادة أمته. وهذه السنة ليست جديدة، بل هي متكررة عبر

التاريخ في الأمم السابقة:

بني إسرائيل: ورثوا الكتاب والنبوة جيلاً بعد جيل، وكانت القيادة فيهم في أسر مخصوصة من نسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٧]

اليهود اليوم: رغم كل ما حل بهم من تشتت، إلا أنهم أدركوا هذه السنة الإلهية. والأكثر دلالة: إن شدة الخصومة التي أبداها بنو أمية وبنو العباس تجاه آل محمد لم تكن جهلاً بمكانتهم، بل كانت اعترافاً مضمراً بتميزهم العلمي والروحي الذي يهدد عروشاً قامت على الغلبة لا على النص والفضيلة.

وهذا يفسر لنا حقيقة مهمة: أن الصراع التاريخي مع آل محمد لم يكن مجرد صراع على السلطة، بل كان إدراكاً من الخصوم بأن هذه الأسرة تمثل المنهج الأصيل الذي لا يمكن أن يزدهر في ظل أنظمة لا تقوم على العدل والنص.

الاصطفاء الإلهي بالتهيئة والتأهيل

ليس اختيار الله لقادة الهدى مجرد تسمية عابرة، بل هو تهيئة وتأهيل متكامل.

قاعدة: "اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي"

قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه: ٤١] هذه الآية تشير إلى أن الله يهيئ عباده الذين يختارهم لقيادة أمته بشكل خاص. فيصنعهم على عينه، ويؤهلهم بالتربية الإلهية، ويجمع لهم من مقومات القيادة ما لا يجتمع لغيرهم.

من مظاهر هذا التأهيل:

١. **الطهارة النسبية**: يخرج القائد من أطهر صلب وأطهر رحم. وقد أشارت الحكمة الإلهية إلى هذه النكتة في خلق عيسى عليه السلام من غير أب؛ ففي ذلك إشارة إلى استخلاصه من غلبة المؤثرات المادية والميول البشرية التي قد تشوب المسارات الوراثية في أزمنة الانحراف، ليكون آيةً محضة للهداية، ونموذجاً للطهارة التي لا يداخلها كدر.

٢. **الإعداد المبكر**: كما نرى في سيرة الإمام علي عليه السلام الذي ربَّاه النبي منذ صغره، فكان أقرب الناس إلى المنهج النبوي.

٣. **الجمع بين الفضائل**: يجمع الله في القائد بين العلم والزهد والشجاعة والعدل، وهي صفات نادرة الاجماع.

أثر البيئة والمال في تكوين القابلية

إن للمال والبيئة أثراً كبيراً في تكوين "القابلية" النفسية والروحية للإنسان. فالبيئة التي تقوم على السحت والحرام تُضعف الوازع الفطري في الذرية، وتُحدث خللاً في البوصلة الأخلاقية.

بينما تقتضي الحكمة الإلهية أن يكون قادة الهداية قد نشأوا في أزكى البيئات، لتكون نفوسهم مستعدةً تماماً لتلقي الفيض الإلهي، بعيداً عن المؤثرات التي تشوش على صفاء الفطرة ونقاء السريرة.

طعن الخصوم في النسب الطاهر.. حيلة قديمة

إن من يدرس تاريخ الصراع على القيادة بعد النبي، يلاحظ ظاهرة لافتة: بعض الخصوم، حين يعجزون عن الطعن في مؤهلات الإمام علي عليه السلام نفسه -من علم وشجاعة وسبق وقرابة- يلجأون إلى هجوم غير مباشر عبر الطعن في والده أبي طالب عليه السلام.

لقد شكك بعض أولئك المعارضين في إسلام أبي طالب، أو نسبوا إليه ما لا يليق بمقامه. وهذه المحاولة، مهما تلفعت برداء الرواية أو الدراية، تهدف إلى أمرين:

١. تشويه النسب الطاهر: ليُقال إن بيت النبوة والوصاية لم يكن خالصاً من الشوائب، وإن القيادة الخالدة قامت على

أصل غير نقي. وهذا كذب وتحريف، فقد ثبت بالتواتر التاريخي أن أبا طالب كان حامياً للنبي ﷺ، ومربياً له منذ طفولته، ومدافعاً عنه في أصعب الظروف، وقائلاً من الشعر وغيره ما يصرح فيه بإيمانه بل وقيل فيه ما يثبت إسلامه.

٢. التقليل من مؤهلات القيادة: لأن النسب الطاهر والبيئة الزكية من المؤهلات الأساسية للقائد الإلهي، كما تقدم في حديث ((يخرج من أطهر صلب وأطهر رحم)). فالطعن في الأصل هو طعن في صحة هذا المؤهل.

والحقيقة أن هذه المحاولات لا تصمد أمام النقد التاريخي الموضوعي. فكيف يُعقل أن يكون من ربى النبي وحماه وآزره ونصره، ثم يُنسب إليه الكفر؟ أم كيف يُتصور أن الله يترك وليه وناصر دينه في الضلالة، بينما يهدي غيره ممن كانوا أمس أعداءً؟!

إن هذا الطعن -في جوهره- ليس اجتهاداً علمياً، بل هو حيلة دفاعية مكشوفة؛ لأن أصحابها يدركون أن النسب الطاهر جزء لا يتجزأ من منظومة المؤهلات القيادية التي لا يمكن تجاوزها.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة بعض بقولهم: "من أراد أن يطعن في المؤهل، لجأ إلى الطعن في الأصل".

دلالة السقيفة – اعتراف بضرورة القيادة

حتى في لحظة الانحراف الأولى، نجد اعترافاً ضمنياً بهذه الحقيقة.

واقعة السقيفة: حين اجتمع الأنصار والمهاجرون بعد وفاة النبي مباشرة،لم يناقشوا هل نحتاج إلى قائد أم لا؟ بل كانت المناقشة حول من يكون القائد؟ ثم تمت البيعة لأبي بكر.

وهذا يدل على أن الجميع – حتى المخالفين للنص – كانوا يقرون بأن الأمة لا يمكن أن تبقى بلا قائد. ولو أن أحداً قال: "لا نحتاج إلى خليفة" لاعتُبر خارجاً عن العقل والشرع.

بل إن عمر بن الخطاب وصف بيعة أبي بكر بأنها "فلتة" (أي: أمر وقع بلا تروٍ ولا مشورة كافية)، لكنه مع ذلك قال: "وقى الله شرها". وهذا اعتراف منه بأن القضية كانت بحاجة إلى عناية أكبر، وأن ما جرى كان متعجلاً.

وهذا يثبت أن ضرورة القيادة كانت محل إجماع، وأن الخلاف وقع في تطبيق هذه الضرورة وتحديد الشخص المناسب.

من يعرف الحق لا ينكره إلا حسداً

هناك قاعدة إلهية ثابتة: الحق لا يُنكر إلا من جهة الحسد أو التكبر.

قال الله تعالى عن الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦] فاليهود كانوا يعرفون محمداً معرفة اليقين، لكنهم رفضوه حسداً، لا جهلاً.

وكذلك الحال مع قضية الإمامة. إن وضوح الأدلة لا يستلزم بالضرورة التسليم بها من قبل الجميع؛ فالنفس البشرية حين تتصادم مع مصالحها قد تلجأ إلى التأويل البعيد، أو ابتكار مسوغات لصرف النص عن ظاهره، حمايةً لمكتسبات سياسية أو اجتماعية.

وهذا يفسر لنا قول الإمام الهادي عليه السلام في هذه القضية: "إن من يكون أهلاً للقيادة له مواصفات لا يختلف فيها اثنان في عصره وزمنه". أي أن من يبحث بإنصاف لا يمكن أن يخطئ في التعرف على القائد الحقيقي؛ لأن خصائصه تكون ظاهرة بينة في زمانه.

خلاصة المبحث

- الشريعة الإسلامية تتميز بالشمولية والدقة في كل شؤون الحياة.
- العقل يرفض أن تعتني الشريعة بالجزئيات وتهمل "أصل النظام" وهو القيادة.

- كمال التشريع يقتضي وجود "مرجعية حية" تحفظ النص وتضمن التطبيق الصحيح.
- استمرار الهداية هو امتداد للطف الله بعباده لئلا يعودوا إلى التيه.
- سنن الله في خلقه تقتضي اصطفاء الأسر لحمل رسالته، وتهيئة القادة تأهيلاً خاصاً.
- حتى المخالفون للنص اعترفوا بضرورة القيادة، كما في واقعة السقيفة.
- الحسد هو الحاجز الأكبر أمام التسليم بالحق بعد ظهوره.

السؤال الذي ينتظر إجابة

إذا كان العقل يقر بضرورة وجود "حافظ وقيّم" على هذا المنهج الشامل بعد رحيل النبي.. وإذا كانت سنن الله تقتضي اصطفاء الأسر وتهيئة القادة.. وإذا كان الحق لا ينكره إلا حاسد أو متكبر.. فما هي المواصفات التي يجب أن تتوفر في هذا "الخليفة" أو "الإمام"؟ وهل يصح أن يُترك اختيار هذا المركز الحساس للناس، أم أن مقتضى الحكمة يوجب أن يكون "التعيين" من الله نفسه كما كان اختيار الأنبياء؟

المبحث الثالث: مواصفات القائد والتعيين الإلهي

بعد أن ثبت أن وجود "الحافظ" للدين ضرورة عقلية، لم يعد السؤال: هل يوجد قائد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

بل أصبح السؤال: من هو هذا القائد؟ وكيف يتم تعيينه؟

وهنا ينتقل البحث من "إثبات الفكرة" إلى "تحديد المصداق".

إن الإجابة على هذا السؤال ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي محاكمة للعقل والواقع المقارن، ومراجعة للسنن الإلهية التي طبّقها الله في جميع الأمم.

أولاً: هل يُعقل أن يفرّط النبي فيما حرص عليه الملوك؟

من مقتضى العقل والضرورة التي يشاهدها كل إنسان في العصر القديم والحديث، أن أي صاحب ولاية -سواء كان ملكاً أو رئيساً- يحرص قبل رحيله على تعيين "ولي عهد" أو خليفة يضمن استقرار نظامه ويحمي شعبه من الفوضى. ولا نجد أحداً ينكر على هؤلاء الملوك هذا التدبير، بل يُعدّ في عرف السياسة "كمالاً في الحكمة".

فإذا كان هذا شأن البشر العاديين، فكيف نُجوز على سيد الحكماء وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم أن يرحل عن أمة حديثة عهد بالإسلام، وفيها من التناقضات والقبائل ما فيها، ويتركها

"سُدى" بلا نص أو تعيين؟

إن القول بأن النبي ﷺ لم ينصب خليفة هو في الحقيقة تهمة للنبي بالتفريط والإهمال -وحاشاه ذلك- لأن ترك ركن القيادة للفراغ في أمة حديثة العهد بالإسلام هو دعوة صريحة للفوضى والنزاع، وهذا يتنافى مع أصل الحكمة الإلهية الذي أسسنا له في المبحث الأول.

ثانياً: المؤهلات هي التي تفرض القائد

في أي مؤسسة أو دولة، المؤهلات هي التي تختار الشخص. وإذا استعرضنا تاريخ الصحابة، نجد أن الفراغ الذي تركه رحيل الرسول لا يمكن أن يملأه إلا شخص واحد اجتمعت فيه مؤهلات "الكمال" التي لا تتوافر في غيره، وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك لعدة أسباب:

السابقية والتحمل: كان شريكاً في حمل همّ الرسالة منذ طفولته، ولم يسجد لصنم قط، وتحمل من المسؤوليات ما عجز عنه كبار الرجال.

غزارة العلم: كان هو المرجع الأول في فهم الكتاب والسنة، بشهادة الصحابة أنفسهم الذين كانوا يلجأون إليه في معضلاتهم.

المؤهل الملكي (الشجاعة): إن قتل كبار المشركين

ليس مجرد بطولة جسدية، بل هو "مؤهل إلهي" للحكم. ففي القرآن الكريم، نجد أن الله ربط بين قتل رأس الكفر واستحقاق الملك والحكمة في قصة داود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾[البقرة: ٢٥١].

فعليٌّ هو الذي قتل جالوت هذه الأمة وكبراء كفرها، فكان الأحق بملكها وحكمتها.

الوراثة النبوية وسنن الأنبياء: القرآن مليء بنماذج الأنبياء الذين طلبوا من الله أن يكون الأوصياء من أهل بيتهم (كما طلب موسى أن يكون هارون وزيراً له). فالنبي الذي ولى أسرة معينة "مفاتيح الكعبة" إلى يوم القيامة ولم ينكر عليه أحد، من باب أولى أن يعين "وليّاً" على دماء الأمة ودينها من أهله الأقربين.

استمرارية السنن الإلهية: اختيار الحافظ بعد النبي ليس أمراً جديداً، بل سنة إلهية تعكس الحكمة الإلهية في كل الأمم، حيث كانت العصمة والمؤهلات في ذرية الأنبياء وسيرتهم حاضرة دائماً لحفظ الدين.

ثالثاً: لماذا حدث الاعتراض؟

إذا كانت المؤهلات واضحة، فلماذا اعترض المعترضون؟

الحقيقة التي ينبغي مواجهتها هي طمع كبار قريش في

الصدارة والملك. هؤلاء الذين حاربوا النبي بالأمس من أجل "الجاه"، دخلوا الإسلام وبقيت في نفوسهم رواسب الحسد وحب التصدر. لقد أدركوا أن الخلافة إذا استقرت في علي (المعين من الله)، فإنها ستستمر في ولده، وهذا يعني نهاية أحلامهم في الوصول للسلطة.

لذلك، عمل هؤلاء على "شحن" البسطاء وتخويفهم من حصر السلطة في بيت واحد -متسترين خلف شعارات براقة كـ"الشورى" و"الاختيار"- بينما كان هدفهم الحقيقي انتزاع الملك ليعود إليهم لا ليعود للأمة.

وما فعله بنو أمية وبنو العباس لاحقاً من فواحش وظلم هو الدليل القاطع على أنهم لم يريدوا "خلافة نبوية"، بل أرادوا "ملكاً قيصرياً" يتوارثونه. ومن الطريف المفجع أنهم لم ينكر أحد عليهم وراثة الملك وقتها، كما أنكروها على رسول الله لو كان نصّ!

نظرة الآمر أم نظرة المأمور به؟ عبرة من قصة إبليس

ولعل أعمق تحليل نفسي لهذا الاعتراض نجده في القصة القرآنية الخالدة: أمر الله الملائكة بالسجود لآدم. فنظرت الملائكة إلى الآمر، فعلموا أن الله حكيم عليم، لا يأمر إلا بخير، ولا يختار إلا من يعلم أنه أهل. فسجدوا جميعاً.

أما إبليس فنظر إلى المأمور به (آدم)، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فنظر إلى المادة لا إلى المصدر، فنظر إلى الظاهر لا إلى الآمر ، فنظر إلى ما يراه هو لا إلى ما يراه الله. فاستكبر وكان من الكافرين.

وهكذا كل معترض على أمر الله: إن نظر إلى الآمر سلم واطمأن، وإن نظر إلى المأمور به فقط -قياساً على عقله القاصر- اعترض واستكبر.

وكذلك المعترضون على ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام: نظروا إلى من أمر بولايته؟ أم نظروا إلى علي نفسه بموازينهم القاصرة؟

لو نظروا إلى أن الآمر هو الله في كتابه (آية الولاية)، والآمر هو رسوله في سنته (حديث الغدير والمنزلة والثقلين)، لما كان لهم من اعتراض.

لكنهم نظروا إلى سن علي، أو إلى أن الخلافة ستستقر في بيته، أو إلى أنه قتل آباءهم في بدر، أو إلى غير ذلك من الاعتبارات التي تشبه نظر إبليس إلى طين آدم. فكان اعتراضهم من جنس اعتراضه، ومآلهم إن لم يتوبوا كمآله.

خلاصة المبحث

- ترك النبي بلا تعيين محال عقلاً.

- مؤهلات علي تفرضه خياراً وحيداً.
- سنن الأنبياء تؤكد التعيين الإلهي.
- جذور الرفض: الحسد وطمع قريش في الملك.
- قصة إبليس: من نظر إلى الآمر سلم، ومن نظر إلى المأمور به وأهوائه اعترض.
- والمعترضون على ولاية علي نظروا إلى شخصه وأهوائهم لا إلى أمر الله.
- العقل والنص: لا أحد أولى بالخلافة بعد النبي من علي.

السؤال الذي ينتظر إجابة

إذا كانت المؤهلات العقلية والواقعية تشير إلى "علي"، والسنن الإلهية تؤكد ضرورة "التعيين".. فكيف تمت عملية إقصائه في الواقع؟ وكيف تحول "الدين" في أيدي الطلقاء إلى "ملك عضوض" يظلم فيه الناس وتُستحل فيه المحارم؟

فصل مستقل: الدلالة النقلية المتواترة على الامتداد الرسالي

(غدير خم نموذجًا)

إذا كان العقل قد قادنا إلى ضرورة وجود مرجعية تحفظ الدين بعد النبي، فإن النقل يأتي ليؤكد هذه الضرورة وليحدد مصداقها. ومن أعظم النصوص التي وردت في هذا الباب ما حدث في يوم غدير خم، حيث قام النبي ﷺ مقاماً لم يقم

مثله في حجة الوداع، ليعلن أمراً لم يكن يمكن تأجيله.

حديث الغدير: في حجة الوداع، وفي يوم شديد الحر، وقف ﷺ أمام جمع غفير يزيد على مئة ألف إنسان، وخطبهم خطبة طويلة، ثم رفع يد علي حتى بان بياض إبطيهما قائلا لهم:

((أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟))

قالوا: بلى يارسول الله.

فقال: ((اللهم اشهد)) ثم قال: ((اللهم اشهد)).

((فمن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، واخذل من خذله، وانصر من نصره)).

رواه الترمذي في سننه، والنسائي في خصائصه، وأحمد في مسنده، وابن ماجه، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين.

والسؤال الذي يفرض نفسه:

هل يعقل أن يجمع النبي الناس في ذلك الموقف العظيم، ويوقفهم في تلك الشمس الحارقة، لمجرد الإشادة بمحبة علي؟ أم أن هذا الإعلان يحمل معنى أعظم من مجرد بيان فضيلة؟

ولو كان المقصود مجرد المحبة، لما احتاج النبي إلى هذا

الجمع العظيم، ولا إلى هذا التوقيت الحرج، ولا إلى هذا الأسلوب التأكيدي المتكرر.

إثبات تواتر الحديث

لم يرو هذا الحديث مصدر واحد أو طريق واحد، بل رواه عدد كبير من الصحابة، ونقله المحدثون في كتب الحديث والتاريخ.

وقد نص كبار العلماء على تواتره:

· قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: «بهرتني طرقه، فقطعت بوقوعه».

· قال ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: «حديث صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة، وطرقه كثيرة جداً».

· قال السيوطي: عدّه في الأحاديث المتواترة.

· قال المقبلي في أبحاثه: «فإن كان هذا معلوماً، وإلا فما في الدنيا معلوم».

وقد جمع ابن جرير الطبري طرقه من خمس وسبعين طريقًا، وأفرد له كتابًا سماه "كتاب الولاية".

وجمع ابن عقدة طرقه من مائة وخمس طرق، ورواه عن النبي أكثر من ثلاثين صحابيًا ، وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثون صحابيًا.

وهذا يعني أن النقاش الحقيقي لم يكن حول وقوع الحديث، بل حول تفسير دلالته.

وهنا يعود السؤال مرة أخرى: إذا كان النص ثابتاً بهذه الدرجة من التواتر، فهل الإشكال في الدليل، أم في طريقة فهمه؟

التحليل السياقي

اللافت في هذا الموقف أن النبي ﷺ بدأ خطبته بسؤال استهلالي عظيم: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» فقالوا: بلى يا رسول الله.

هذا السؤال ليس مجرد استفتاء عابر، بل هو تذكير بحقيقة قرآنية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

بعد أن أقرّ الحاضرون بأن النبي أولى بهم من أنفسهم، انتقل إلى النتيجة مباشرة: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه».

المولى في اللغة يأتي بمعنى الأولى بالتصرف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٦] وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]. فإذا كان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأعلن أن عليًا مولى لمن هو مولاه، فهذا يعني أن عليًا يأخذ نفس الولاية التي للنبي على الأمة.

ارتباط الحديث بآيات قرآنية

نزلت في هذا اليوم آيتان عظيمتان تؤكدان أهمية هذا الحدث:

الأولى: آية التبليغ

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. روى المفسرون أن هذه الآية نزلت قبل خطبة الغدير، وكان النبي يخشى تبليغ هذا الأمر، فنزلت الآية تؤكد له أن الله يعصمه من الناس.

الثانية: آية إكمال الدين

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. روى المفسرون أن هذه الآية نزلت بعد أن فرغ النبي من خطبته، لتعلن أن الدين قد اكتمل بهذا التبليغ.

الربط بالدليل العقلي

هذه النصوص تؤكد ما وصلنا إليه بالدليل العقلي: أن الحكمة الإلهية تقتضي وجود مرجعية تحفظ الدين بعد النبي.

فكما أن العقل أدرك ضرورة الحافظ للنص، جاء النص ليعين هذا الحافظ ويسميه، ويكشف عن هويته.

وهكذا يتكامل العقل والنقل: العقل يدرك الضرورة، والنقل يحدد المصداق.

المبحث الرابع: الانحراف الكبير.. من الخلافة النبوية إلى الملك العضوض

الصدمة الواقعية

قد يتساءل القارئ بعد ما تقدم من الأدلة:

إذا كانت الحكمة الإلهية تقتضي وجود إمام يحفظ الدين بعد النبي، وإذا كانت المؤهلات العلمية والعملية تشير بوضوح إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وإذا كانت النصوص الدينية تؤيد هذا الاتجاه... فكيف وقع الانحراف التاريخي الذي أدى إلى إقصائه؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن فهمها إلا بالنظر إلى الواقع الاجتماعي والسياسي لقريش، وإلى طبيعة الصراع الذي كان كامناً في النفوس منذ بداية الدعوة، ثم ظهر بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالتاريخ لا تحركه النصوص وحدها، بل تحركه كذلك النفوس والطموحات والصراعات القبلية والسياسية.

ومن هنا نفهم كيف يمكن أن يتحول الدين -في أيدي بعض الناس- من منهج هداية إلى وسيلة للسلطة والملك.

أولاً: جذور التوتر في المجتمع القرشي

لم يكن المجتمع القرشي كتلة واحدة في إيمانه بالدعوة منذ بدايتها.

ففيه من دخل الإسلام عن إيمان عميق، وفيه من دخله بعد أن تغيرت موازين القوة وظهر الإسلام منتصراً.

ومن أبرز هؤلاء ما عُرفوا في التاريخ بـ "الطلقاء"؛ وهم الذين عفا عنهم النبي يوم فتح مكة بعد سنوات طويلة من العداء والحروب.

ومن أسمائهم المعروفة في كتب التاريخ: أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ووليد بن عقبة، وغيرهم ممن أسلموا بعد فتح مكة أو في أعقابه، وكان بعضهم حديث عهد بالإسلام، مما جعل مواقفهم محل نقاش وتحليل بين المؤرخين.

وهنا يبرز البعد النفسي الذي ينبغي تأمله:

إن الإنسان الذي قضى عشرين سنة يقاتل خصماً، ثم يضطر تحت وطأة الهزيمة إلى الاعتراف بفضله، لا تتحول مشاعره بين عشية وضحاها إلى محبة صادقة. قد يخفيها في الظاهر إكراماً للنبي أو خوفاً من بطش الدولة الجديدة، لكنها تبقى كامنة في الأعماق، تبحث عن فرصة للظهور عندما تتغير موازين القوى.

وقد كان من الطبيعي أن تتركز هذه المشاعر المكبوتة تجاه الشخص الذي كان له الدور الأبرز في المواجهات العسكرية

مع قريش، وهو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي كان في مقدمة المدافعين عن الإسلام في بدر وأحد والخندق وغيرها.

هذه الخلفية التاريخية والنفسية أسهمت في خلق توتر مكتوم، لم يظهر بشكل صريح في حياة النبي لهيبته ومكانته، لكنه عاد إلى السطح بقوة بعد رحيله عندما فُتح باب الصراع على القيادة.

ثانياً: استخدام المخاوف القبلية

في لحظات التحول السياسي الكبرى تلجأ بعض القوى إلى إثارة المخاوف الجماعية من أجل كسب التأييد.

وقد استُخدم هذا الأسلوب في قضية الخلافة؛ حيث جرى تخويف بعض القبائل والبطون القرشية من أن استقرار القيادة في بيت النبي سيؤدي إلى استمرارها في هذا البيت عبر الأجيال، مما يعني خروج بقية القبائل من دائرة السلطة إلى الأبد.

ولو أردنا تقريب الصورة إلى ذهن القارئ المعاصر، نقول:

كما يحدث اليوم في بعض المؤسسات العائلية الكبرى، حين يخشى الموظفون القدامى من استمرار الإدارة في عائلة المؤسس، فيتحالفون معاً تحت شعار "الخبرة أهم من الوراثة"

أو "الاختيار الحر هو الضمانة الوحيدة للكفاءة". مع أن هدفهم الحقيقي ليس الخبرة ولا الكفاءة، بل تقاسم المناصب والسلطة فيما بينهم، ومنع استئثار أسرة واحدة بها.

وهكذا جرى تصوير مسألة التعيين الإلهي على أنها نوع من "احتكار السلطة"، بينما قُدِّم شعار الشورى على أنه الضمان لتداولها بين القبائل.

غير أن التطور اللاحق للأحداث التاريخية يكشف أن القضية لم تكن صراعاً مبدئياً حول الشورى، بل كانت في جانب كبير منها صراعاً سياسياً على النفوذ والسلطة.

ثالثاً: المشهد الأكثر تعقيداً: سقيفة بني ساعدة

عندما توفي النبي ﷺ، كان الإمام علي وأهل بيته مشغولين بتجهيزه للدفن، وفي تلك اللحظة الحساسة اجتمع جمع من الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر الخلافة، ظناً منهم أن لهم فيها نصيباً.

ولما علم بعض المهاجرين بهذا الاجتماع، توجهوا إليه، ودار نقاش حاد بين الحاضرين، زاعمين حالة التوتر والقلق من حدوث فراغ قيادي قد يؤدي إلى اضطراب كبير في المجتمع.

وهذا المشهد يكشف عن مفارقة كبرى: كيف يُترك أمر الخلافة لهذا الاندفاع، وكأن الدين لم يكتمل والرسالة لم تبلغ بعد؟!

والأكثر إثارة للدهشة: ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: ((هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده)). فقال عمر - وفي رواية: قال بعضهم -: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله.

والتأمل في هذا الموقف يثير حيرة كبرى: كيف يمنع من كتابة وصية، ثم يُحتج بأن القرآن كافٍ؟ ومن جاءهم بالقرآن إن لم يكن النبي الذي يريد أن يكتب بياناً لحفظه؟!

بل إن عمر فهم من النبي أنه يريد أن ينص على خلافة أخيه علي، وهذا ما جعله يعترض.

فلما أكثروا اللغط والاختلاف، قال النبي: ((قوموا عني)).

وكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب.

وفي خضم هذه الأجواء المتسارعة، بويع أبو بكر في

السقيفة، ثم بدأت البيعة تنتشر سريعاً في واقع الأمة في ظل ظروف استثنائية.

وقد وصف عمر بن الخطاب هذه البيعة لاحقاً بأنها "فلتة"، في إشارة إلى طبيعتها المفاجئة التي تحتاج إلى تأمل في ظروفها وملابساتها.

والأهم من ذلك: أن الإمام علياً وأهل بيته، وجمعاً من كبار الصحابة، لم يكونوا حاضرين في هذا المشهد، لانشغالهم بتجهيز النبي، مما يعكس أن القرار تم في لحظة لم تجتمع فيها كل الأطراف المعنية.

وهذا يكشف أن قضية الخلافة لم تكن محل اتفاق شامل في لحظتها الأولى، بل تشكلت في سياق معقد من الظروف المتسارعة، ثم استقر عليها واقع الأمة مع مرور الوقت.

رابعاً: مفارقة مفاتيح الكعبة

هنا تظهر مفارقة لافتة تستحق التأمل.

فقد ثبت تاريخياً أن النبي ﷺ عندما فتح مكة أعاد مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة، وجعل سدانتها فيهم، وبقي هذا الأمر مقبولاً عند المسلمين عبر العصور دون اعتراض يُذكر.

وهذا يعني أن فكرة استمرار وظيفة معينة في أسرة محددة لم تكن مرفوضة في حد ذاتها.

بل إن الأمر الأكثر دلالة هو أن هذه الوظيفة (سدانة الكعبة) كانت وظيفة جاهلية، أي أن بني شيبة كانوا يتولونها قبل الإسلام، وأقرهم النبي عليها بعد الفتح. فإذا كانت الجاهلية لا تمنع استمرار الأسرة في خدمة الحجر، فكيف تكون النبوة والصحبة مانعة من استمرار الأسرة في قيادة الأمة؟

لكن عندما يتعلق الأمر بقيادة الأمة وحفظ الدين، يظهر الاعتراض على فكرة التعيين في بيت النبي نفسه.

وهذا التناقض يدفع إلى التساؤل:

هل كان الاعتراض على مبدأ التعيين، أم على الشخص المعين؟

إن التأمل في الوقائع التاريخية يكشف أن المشكلة لم تكن في المبدأ، بل في طبيعة القيادة التي يمثلها الإمام علي، وهي قيادة تقوم على الصرامة في الحق، والعدل في توزيع المال العام، وعدم المجاملة في تطبيق القيم. وهي صفات كانت تشكل تهديداً لمصالح الذين اعتادوا على نفوذهم الاجتماعي والاقتصادي في الجاهلية وصدر الإسلام.

خامساً: النتائج التاريخية للتحول السياسي

عندما انتقلت الخلافة من نموذج القيادة الرسالية إلى

ساحة الصراع السياسي، بدأت تظهر تدريجياً آثار هذا التحول.

فبعد عقود قليلة فقط من وفاة النبي، تمكنت الدولة الأموية من تحويل الخلافة إلى نظام ملكي وراثي، حين قام معاوية بن أبي سفيان بتوريث الحكم لابنه يزيد.

ومن الطريف المفجع أن بني أمية -وهم أنفسهم الذين قاوموا فكرة الوراثة في بيت النبي بحجة أنها "احتكار للسلطة"- لم يجدوا غضاضة في توريث الملك لأبنائهم. بل سخروا الخطباء والشعراء والعلماء لتبرير تحويل الخلافة إلى ملك وراثي، تحت شعارات جديدة مثل "الضرورة السياسية" و"لم الشمل" و"حق المسلم في البيعة لمن اجتمع عليه الناس". وهذا يكشف أن القضية لم تكن مبدئية البتة.

وقد سجل التاريخ على تلك المرحلة أحداثاً جسيمة كان لها أثر بالغ في وجدان الأمة، من أبرزها:

واقعة كربلاء (٦١ هـ):

حين رأى الإمام الحسين عليه السلام أن الواقع السياسي يتجه نحو تحويل الخلافة إلى نمط من الحكم لا ينسجم مع قيم العدل والرسالة، أعلن موقفه الرافض لذلك، قائلاً: «لا والله لا أعطيهم بيدي يد الذليل».

خرج بأهل بيته وأصحابه القلائل، مدركاً صعوبة الطريق، لكنه اختار الثبات على المبدأ.

وفي كربلاء، اشتد الحصار عليهم، وبلغت المحنة مبلغاً عظيماً، حتى انتهت الواقعة باستشهاد الحسين وأصحابه، في مشهد هز وجدان الأمة.

ولم تكن كربلاء مجرد حدث تاريخي، بل مثلت نقطة تحول كبرى، كشفت طبيعة التحول الذي أصاب مسار الحكم، وجعلت من موقف الحسين رمزاً خالداً للثبات على الحق مهما كانت التضحيات.

وقعة الحرّة (٦٣ هـ):

حيث استباح جيش يزيد بن معاوية المدينة المنورة ثلاثة أيام، فانتهكت فيها الأعراض، وسفكت الدماء. وهذه هي المدينة التي جعلها النبي حرماً آمناً، وقال: "إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم ما بين لابتيها" فكان انتهاك حرمتها علامة فارقة على تجاوز كل الحدود الدينية.

توسع مظاهر الترف السياسي:

حيث تحول قصر الخلافة من غرفة بسيطة على سطح المسجد إلى قصور الشام المزخرفة، ومن عيشة الزهد إلى مجالس اللهو والترف. هذا الترف لم يكن مجرد تغيير في نمط الحياة، بل كان انعكاساً لتحول القيم ذاتها؛ فلم تعد الخلافة

"خلافة عن النبوة" بل أصبحت "ملكاً عضوضاً".

ثم جاء العصر العباسي لاحقاً ليكرر نموذج الصراع على السلطة، حيث انتقلت الخلافة من أسرة إلى أخرى عبر الثورات والحروب، وقتل الخلفاء بعضهم بعضاً.

وهكذا تحول نظام الحكم -الذي كان يفترض أن يكون امتداداً لقيادة النبوة- إلى ما وصفه النبي ﷺ في بعض الروايات بـ "الملك العضوض"؛ الذي يؤكل فيه الضعيف، ويُستأثر فيه بالفيء، ويُقتل فيه الأبرياء.

خلاصة المبحث

- التحول عن مسار القيادة الرسالية لم يحدث فجأة، بل كان نتيجة عوامل سياسية ونفسية وقبلية متراكمة.
- استُخدمت شعارات مثل "الشورى" و"الخبرة" لتبرير نقل السلطة، بينما كشفت الوقائع اللاحقة عن صراع سياسي على الحكم.
- المقارنة مع مسألة مفاتيح الكعبة تكشف أن الاعتراض لم يكن على مبدأ التعيين نفسه، بل على الشخص الذي يمثله.
- التحول التاريخي من الخلافة إلى الملك الوراثي كان من أبرز النتائج التي ترتبت على إقصاء نموذج القيادة

الرسالية.

السؤال الذي ينتظر إجابة

بعد هذا التحول التاريخي الكبير، يبرز سؤال آخر لا يقل أهمية:

هل انتهى دور الإمامة بعد تلك الأحداث؟

أم أن الإمامة -باعتبارها عهداً إلهياً لحفظ الدين- استمرت في الأمة بشكل آخر؟

وكيف يمكن للإنسان في كل عصر أن يرتبط بهذا الامتداد الإلهي للهداية؟

المبحث الخامس: مواجهة النص.. هل المشكلة في الدليل أم في الهوى؟

العودة إلى السؤال الجوهري

انتهينا في المبحث السابق إلى حقيقة تاريخية واضحة، وهي أن مسار القيادة في الأمة الإسلامية انحرف مبكراً عن النموذج الرسالي الذي كان يُفترض أن يستمر بعد النبي ﷺ.

لكن يبقى السؤال الأهم:

هل يؤدي التحول التاريخي إلى سقوط الحقيقة نفسها؟

إن الحقيقة لا تزول بانصراف الناس عنها، كما أن الدليل لا يسقط إذا تجاهله البعض. فالواقع قد يتغير، لكن النص يبقى حجة قائمة، يلاحق الضمائر، ويكشف ضعف المسارات التي ابتعدت عنه.

ولهذا لا بد أن نعود إلى أصل القضية، فنطرح السؤال من جديد:

هل عيَّن النبي ﷺ خليفةً من بعده، أم ترك الأمة بلا تعيين؟

المحاكمة المنطقية: حصر الخيارات

لقد وصلنا في المباحث السابقة إلى نتيجة عقلية واضحة:

أن الحكمة الإلهية تقتضي وجود قيادة تحفظ الدين بعد

النبي، وأن القول بترك الأمة بلا مرجع يفتح باب اتهام الحكمة الإلهية بالتفريط في حفظ الرسالة، كما يفتح باب اتهام النبي بعدم إكمال مهمته في بيان نظام الأمة.

وعليه يصبح السؤال المباشر:

ماذا فعل النبي فعلاً؟

هل ترك الأمة بلا بيان؟

أم أنه بيّن القيادة ولكن بعض الناس لم يلتزموا بها؟

عندما نرجع إلى النصوص المروية في المصادر الإسلامية نجد أحاديث كثيرة تشير إلى موقع خاص للإمام علي بن أبي طالب، من أبرزها:

حديث الغدير

وقد سبق أن استوفينا الكلام عن هذا الحديث في الفصل المستقل، وذكرنا تواتره عن أكثر من ثلاثين صحابياً، ونص كبار العلماء عليه (كالذهبي وابن حجر والسيوطي والمقبلي)، ودلالته الواضحة على أن "المولى" في اللغة يأتي بمعنى الأولى بالتصرف، وأن النبي جعل علياً بمنزلته من حيث الولاية على الأمة.

فمن شاء التفصيل فليرجع إلى هناك، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن هذا الحديث وحده كافٍ لإثبات القضية،

لولا أن المعاند لا تنفعه الآيات والبينات.

حديث المنزلة

عندما خرج النبي إلى غزوة تبوك واستخلف علياً على المدينة قال له: ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي)).

رواه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، والترمذي، والنسائي، وأحمد، وغيرهم.

وهارون لم يكن مجرد قريب لموسى، بل كان شريكه في الرسالة، وخليفته على قومه عند غيابه.

فهل تُمنح هذه المنزلة العظيمة لشخص عادي؟

أم أنها تشير إلى موقع قيادي متميز في نظام الرسالة؟

حديث الثقلين

وفي حجة الوداع أيضاً، وفي أكثر من موقف، قال النبي: ((إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً)).

برواية : أحمد بن حنبل في مسنده، وولده عبدالله، وابن أبي شيبة، والخطيب ابن المغازلي، والكنجي الشافعيان، والسمهودي الشافعي، والمفسر الثعلبي، ومسلم في صحيحه ورواه غيرهم: كالحاكم الجشمي، والحاكم الحسكاني .

هنا جعل النبي العترة قرينةً للقرآن، وجعل التمسك بهما

معاً ضماناً من الضلال.

فهل يُعقل أن يكون من قرنهم النبي بالقرآن مجرد أشخاص عاديين لا دور لهم في هداية الأمة بعده؟

آية الولاية

ومن النصوص القرآنية التي استوقفت المفسرين في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقد نقل عدد كبير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عندما تصدق بخاتمه وهو راكع في الصلاة.

روى ذلك الطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، والسيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في تفسيره.

واللافت أن الآية لم تتحدث عن مجرد الصلاح أو الفضل، بل استخدمت لفظ "الولاية" الذي يدل على نوع من الارتباط القيادي والمرجعي في حياة الأمة.

فإذا جمعنا بين هذه الإشارة القرآنية، وبين الأحاديث النبوية المتقدمة، ظهر أن قضية الإمامة لم تكن مجرد فكرة ظهرت لاحقاً، بل كانت حاضرة في النصوص المؤسسة منذ البداية.

حصر الاحتمالات: الطريق إلى النتيجة

عند هذه النقطة يصبح الباحث أمام ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

الاحتمال الأول: أن النبي عيَّن شخصاً آخر غير علي.

فإن قيل: لعل النبي عيَّن أبا بكر أو عمر أو غيرهما.

قلنا: هاتوا نصاً واحداً يعادل وضوح حديث الغدير، أو يضاهي خطورة حديث المنزلة، أو يماثل دلالة حديث الثقلين، أو يشير إليه قرآن كريم كما في آية الولاية.

بل هل ورد في حق أحدٍ منهم نص يجمع هذا العدد من الدلالات؟

إن البحث في المصادر لا يقدم اسماً آخر يملك هذا المستوى من النصوص.

الاحتمال الثاني: أن النبي لم يعيّن أحداً أصلاً.

وهذا يعني تفسير تلك النصوص الكثيرة بغير ظاهرها، أو صرفها عن معناها الذي نصت عليه مع أنها لا تحتمل التأويل، أو تجاهلها تماماً.

فهل يصح من حكيم أن يترك أمة بأكملها بلا مرجع، ثم ينصب الأدلة التي توحي بوجود هذا المرجع؟ بل تنص على هذا المرجع؟

إن هذا الاحتمال يصعب قبوله عقلاً بعد إثبات ضرورة القيادة في المباحث السابقة.

الاحتمال الثالث: أن المشكلة ليست في النصوص، بل في طريقة التعامل معها.

أي: أن الخلفيات النفسية والسياسية دفعت بعض الناس إلى تأويل النصوص تعسفا أو تجاوزها، لا أن النصوص كانت غامضة في ذاتها.

وهذا الاحتمال هو الأقرب إلى تفسير ما وقع في التاريخ.

سؤال يكشف معيار الإنصاف

ولكي تتضح الصورة أكثر، فلنطرح سؤالاً بسيطاً لكنه كاشف:

ماذا لو وردت هذه النصوص نفسها في حق شخص آخر غير علي بن أبي طالب؟

تخيل لو أن النبي قال يوم الغدير: ((من كنت مولاه فهذا أبو بكر مولاه)).

ولو قال في عمر: أنت مني بمنزلة هارون من موسى.

ولو قال: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وآل فلان".

ونزلت آية قرآنية في حقه تشير إلى ولايته.

هل كان أحد سيقول إن المقصود مجرد المحبة؟

أو إن هذه النصوص لا علاقة لها بالقيادة؟

أم كنا سنراها اليوم أوضح أدلة الخلافة التي لا يختلف عليها أحد؟

إن التجربة التاريخية تشير إلى أن مثل هذه النصوص لو قيلت في حق شخصية أخرى لكانت تُتلى اليوم على المنابر كأصرح دليل على الإمامة.

ومن هنا يتبين أن المشكلة ليست دائماً في وضوح النص، بل أحياناً في هوية الشخص الذي يدل عليه النص.

سؤال إلزامي للمعترض: ماذا كنتم تريدون النبي أن يقول؟

ولنطرح على المعترضين سؤالاً مباشراً لا مفر منه:

أنتم تزعمون أن قول النبي «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» لا يدل على الخلافة والقيادة، وتتأولون لفظ "المولى" بصرفه عن معناه الظاهر. فما هي اللفظة التي كان ينبغي على رسول الله أن يعبر بها لو أراد أن ينص على الخلافة نصاً لا يحتمل التأويل؟!

هل كان ينبغي أن يقول: «هذا خليفتي من بعدي»؟

أم «هذا الإمام القيم على أمتي»؟

أم «اسمعوا له وأطيعوا»؟

أم «إني مخلف فيكم علياً»؟

أم «إني مخلّف فيكم كتاب ربي وعترتي»؟

بل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك مجالاً لأحد، فقد قالها بأبلغ الألفاظ وأوضحها في مقامات متعددة.

فقد ورد في الأحاديث المتواترة التي رواها أكثر من عشرين صحابياً، وخرجت في دواوين الإسلام، أنه قال:

- ((إني تارك فيكم، ومخلّف فيكم))
- ((فانظروا كيف تخلفوني فيهما))
- ((إني سائلكم حين تردون عليَّ الحوض عن الثقلين))
- ((فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي)) قالها ثلاثاً.

بل ورد في رواية فاطمة بنت علي عليها السلام أن النبي قال في مرضه الذي قبض فيه، وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: ((أيها الناس، أوشك أن أقبض قبضاً سريعاً، فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم؛ ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل، وعترتي أهل بيتي))، ثم أخذ بيد علي فرفعها، فقال: ((هذا علي مع القرآن)).

بل حاول النبي أن يكتب النص في مرض موته كتاباً لا يختلف عليه اثنان.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: ((هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده)). فقال عمر -وفي رواية: قال بعضهم-: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلفوا وأكثروا اللغط، فقال النبي: ((قوموا عني)).

وهنا تظهر المفارقة الكبرى: النبي يريد أن يكتب كتاباً يُعصم الأمة من الضلال، فيمنعه بعضهم، ويتهمونه بأنه يهجر! قالوا: «إن الرجل ليهجر»-والعياذ بالله -.

فإذا كان النبي عندما أراد أن يكتب النص صراحة، وقال بألفاظ "مخلف" و"مخلّف" و"أذكركم الله في أهل بيتي"، قوبل بالاتهام والمنع، فأي نص كان سيمر عليهم؟! وأي لفظ كان سيقبلونه؟!

وهذا يكشف حقيقة مرة: أن المشكلة ليست في غياب النص، ولا في وضوح اللفظ، بل في وجود مانع نفسي وسياسي يمنعهم من قبول أي نص، مهما كان واضحاً. ولو أن النبي نصَّ صراحة بألفاظ لا تحتمل التأويل لقالوا: «إنها كانت في مرض الموت فلا يحتج بها»، أو «إنه قالها في حالة الهجر»، أو «إنها اجتهاد منه لا وحياً».

فمن أراد الاعتراض، وجد سبيلاً. ومن أراد التسليم، وجد النصوص من حوله تكفيه.

وهذا يثبت أن القضية لم تكن قضية دليل، بل قضية هوى واستكبار، كما قال الله عن المشركين: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكَ﴾.

شبهة قد تخطر بالبال: لماذا لم يفهم الصحابة النصوص كما نفهمها نحن اليوم؟

قد يقول قائل: لو كانت النصوص بهذا الوضوح، فلماذا لم يفهمها أكثر الصحابة بهذا الشكل؟ ولماذا بايع بعضهم أبا بكر؟

والجواب من وجوه:

أولاً: ليس صحيحاً أن أكثر الصحابة لم يفهموا النصوص. فقد ثبت تاريخياً أن جمعاً كبيراً من الصحابة تمسكوا بولاية علي بعد النبي، وهم الذين عُرفوا بـ "شيعة علي" في عصر النبوة نفسها، من أبرزهم: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وابن عباس، وغيرهم.

ثانياً: البيعة لأبي بكر لم تكن إجماعاً كما يُصوَّر. فالإمام علي وأهل بيته، وكبار الصحابة المذكورين، لم يبايعوا، بل اعتصموا في بيت فاطمة الزهراء احتجاجاً على ما رأوه

خروجاً عن وصية النبي بل إن عمر نفسه وصفها بأنها فلتة وقى الله الناس شرها .

ثالثاً: تأثرت مواقف بعضهم بالظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها الأمة في تلك المرحلة،وبالخوف من الفتنة،أو بطمع في منصب،أو برواسب قبلية.

رابعاً: العبرة ليست بكثرة من خالف النص، بل بثبات النص نفسه. فكم من حق خالفته الأكثرية في لحظة من التاريخ، ثم عادت الأجيال اللاحقة لتدركه؟ ليس معيار الحق هو عدد أتباعه في لحظة معينة، بل هو وضوح الدليل وصدقه.

ومن هنا يتبين أن الخلاف لم يكن في أصل النص، بل في كيفية التعامل معه في الواقع.

الإمامة: عهد إلهي لا يسقط بالانحراف

إذا ثبت أن الإمامة جزء من نظام الهداية الإلهية، فإن إقصاءها سياسياً لا يعني سقوطها من حيث المبدأ.

يقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فالإمامة عهد إلهي، لا يناله الظالمون، لكنه يبقى قائماً في المسار الذي اختاره الله، حتى لو حُورب أو أُقصي.

ولهذا استمرت الإمامة في ذرية النبي كمرجعية علمية وروحية تحفظ جوهر الدين، حتى في المراحل التي لم تتحول فيها إلى سلطة سياسية.

شبهة أخرى: لماذا لم ينتصر الأئمة سياسياً؟

قد يتساءل البعض: إذا كانت الإمامة حقاً، فلماذا لم ينتصر الأئمة سياسياً؟

والجواب بسيط: إن الأنبياء أنفسهم لم ينتصروا جميعاً في حياتهم الدنيا. فقد قُتل بعض الأنبياء، واضطُهد آخرون، ونبي الله يحيى ذُبح، وزكريا قُتل.

ومع ذلك لم يقل أحد إن نبوتهم باطلة لأنهم لم يملكوا السلطة.

فالنصر السياسي ليس معيار الحق، بل المعيار هو النص الإلهي والدور الرسالي في حفظ الدين وهداية الناس.

وقد بقيت الإمامة تؤدي هذا الدور حتى عندما غابت عن كرسي الحكم.

خاتمة المبحث

إن النصوص عندما تُقرأ بعين البحث الصادق تبدو واضحة في اتجاهها، متكاملة في إشاراتها، متعاضدة في

دلالاتها.

لكن التاريخ يعلّمنا أن وضوح الدليل لا يكفي وحده أحياناً؛ فكم من حقٍ كان جلياً ثم غلبته المصالح، وكم من نصٍ كان بيّناً ثم غطّته تأويلات السياسة.

ولهذا يبقى السؤال الحقيقي موجهاً لكل قارئ منصف:

هل نبحث عن الحقيقة كما هي، أم كما تعودنا أن نراها؟

المبحث السادس: الإمامة.. الامتداد الطبيعي للنبوة

الطريق إلى الخاتمة

وصلنا بعد خمسة مباحث إلى حقيقة مهمة: أن النظام الرسالي الذي أقامه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم ينتهِ بوفاته، وأن النصوص الصريحة تشهد بوضوح على الإمامة بوصفها امتداداً طبيعياً للنبوة في حفظ الدين وهداية الأمة.

لكن يبقى السؤال الأهم في هذه الخاتمة:

كيف يترجم هذا الواقع الإلهي في حياتنا المعاصرة؟

وكيف يمكن للباحث عن الحق أن يرتبط بمنهج الإمامة عملياً، بعد أن اقتنع به نظرياً؟

للإجابة عن هذا السؤال، لا بد أن نفهم أولاً طبيعة الإمامة ذاتها: إنها ليست مجرد سلطة سياسية انتهت بانتهاء عصرها، بل هي سفينة هدى تمتد عبر الزمن، تحمل من ركبها إلى شاطئ النجاة.

سفينة النجاة في زمن العباب

لقد شبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته بسفينة نجاة في حديث صريح ومعروف: ((إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق)).

وهذا التشبيه النبوي يكشف لنا حقيقة دقيقة:

فكما كانت سفينة نوح وسيلة النجاة الوحيدة في الطوفان،

كذلك كانت الإمامة وسيلة النجاة الوحيدة من طوفان الانحراف بعد النبي.

وكما أن سفينة نوح لم تكن موجودة لتبقى على الأرض، بل لتركب وتنجو، كذلك الإمامة ليست نظرية نقرؤها ونتجاوزها، بل مركب نركبه لنعبر به إلى بر الأمان.

وهذا يعني أن مسألة الإمامة ليست خياراً فكرياً نأخذه أو نتركه، بل هي طريق النجاة الذي لا ينجو من طوفان الضلال إلا من ركبه.

أولاً: الإمامة امتداد للنبوة

كما بيّنا في المباحث السابقة، الإمامة ليست اختراعاً بشرياً، ولا نتيجة صراعات سياسية، بل هي عهد إلهي قائم على النص والقدرة المؤهلة.

يقول الله تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

فالإمامة عهد من الله، لا يسقط بظلم الظالمين، ولا يزول بانحراف الحاكمين، بل يبقى حياً في الذرية الطاهرة التي اختارها الله لحمل هذه الأمانة.

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: ((إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي))، لم يكن يودع الأمة تراثاً مكتوباً فقط، بل كان

يمد لها حبل هداية ممدوداً من السماء إلى الأرض، يضمن لها عدم الضلال ما تمسكت به.

فالإيمان بالإمامة إذن يعني ربط الهداية بالنص الإلهي، لا بآراء البشر المتغيرة، ولا بتحولات السلطة المتقلبة.

ثانياً: حضور الإمامة في غياب السلطة

قد يتساءل قائل: إذا كان الأئمة قد أقصوا عن الحكم، وقتل بعضهم، فكيف يمكن أن يكونوا هداة للأمة؟

والجواب أن الحضور الهدائي لا يتوقف على الحضور السياسي.

فالإمامة استمرت تؤدي دورها في الأمة عبر مسارات متعددة:

١. حفظ العلم النبوي:

الأئمة كانوا المرجع الأول في تفسير القرآن وبيان السنة، في زمن كثر فيه الوضع والتحريف. كانوا كالنجوم في ليلة ظلماء، يهتدي بهم من أراد الله له الهداية.

٢. التربية الروحية والأخلاقية:

لم يتركوا الناس في صراعات السياسة وحدهم، بل ربوا الأجيال على الزهد في الدنيا، والإخلاص لله، والصبر على الأذى في سبيل الحق. وهذه التربية هي التي أنتجت علماء كباراً وشهداء عظماء.

٣. ضبط البوصلة في زمن العواصف:

في كل مرحلة تاريخية كان هناك من الأئمة أو من ورثتهم العلميين من يذكر الأمة بمعايير الحق، ويفضح انحراف الحكام، ويحمي الدين من أن يتحول إلى أداة في أيديهم.

وهكذا بقيت الإمامة حية في الأمة، حتى وهي غائبة عن مركز السلطة.

ثالثاً: الرؤية الزيدية في الإمامة

إن الإمامة في هذا التصور ليست منصبًا مغلقًا في أشخاص معدودين، ولا دعوى غيبية منفصلة عن واقع الأمة، بل هي امتداد لمنهج النبوة في قيادة الأمة بالعلم والعدل، يقوم بها من توفرت فيه شروطها من أهل البيت، ودعا إليها، ونهض لتحمل مسؤوليتها.

فالإمام ليس مجرد اسم يُنتظر، بل هو مشروع يقوم، وعلم يُنشر، وعدل يُقام.

ومن أوضح من جسّد هذا المعنى في التاريخ: الإمام زيد بن علي عليه السلام، حيث جمع بين العلم والجهاد، والدعوة والعمل، فكان نموذجًا للإمامة الحية التي لا تنفصل عن واقع الأمة.

ليست الإمامة انتظارًا لواقع غائب، بل هي مسؤولية قائمة في كل زمان، يحملها من توفرت فيه شروطها، ونهض بها،

ودعا إليها.

رابعاً: لماذا النص على علي خاصة؟

قد يسأل سائل: لماذا نؤمن بضرورة النص الخاص على الإمام علي عليه السلام، بينما لا نطالب بنص خاص على كل إمام من بعده؟

والجواب أن الفرق بين المقامين واضح:

أولاً: علي عليه السلام هو أول من يلي النبي في قيادة الأمة. والأمة كانت حديثة عهد بالإسلام، وفيها من التناقضات والرواسب الجاهلية ما فيها. فكان لابد من نص قاطع يقطع الطريق على كل اعتراض، ويُسكت كل مدعٍ، ويُثبت أن الأمر ليس اجتهاداً بشرياً ولا صراعاً على الملك. فالنص الخاص هنا كان ضرورة المرحلة الأولى.

ثانياً: بعد أن ثبت بالنص أن الإمامة في أهل البيت، وأن الإمام الحق هو من سار بسيرة علي واتصف بصفاته (علماً، زهداً، شجاعة، عدلاً)، أصبح الإمام يُعرف بـ النص العام (الولاية في أهل البيت) مع مطابقة الشروط التي كان عليها علي. فمن جاء بعد علي وتوفرت فيه تلك الشروط، ودعا إلى الحق، ونهض بالمسؤولية، فهو الإمام.

وهذا هو الفرق بين النص الخاص (لعلي) والنص العام

(لباقي الأئمة). وهو ما تتبناه الرؤية الزيدية في الإمامة: لا يشترط نص خاص على كل إمام، بل يكفي أن يكون من أهل البيت، وأن تتوفر فيه الصفات القيادية نفسها التي كانت في علي، وأن ينهض بالدعوة إلى الحق.

فالإمام علي إذن هو الدليل والمعيار والنموذج الذي يُقاس به من يأتي بعده.

خامساً: أربع خطوات عملية للارتباط بالإمامة

بعد أن تبين لنا الطريق نظرياً، لا بد من الانتقال إلى التطبيق العملي.

الخطوة الأولى: إعادة قراءة التاريخ بعين النص

ليس المطلوب أن نعيش في الماضي، بل أن نفهمه فهماً يحررنا من أوهامه. اقرأ سيرة الأئمة ليس كأخبار ماضية، بل كنماذج حية:

- في صبر علي على الإقصاء.
- في ثبات الحسين في كربلاء.
- في علم الباقر والإمام زيد رغم المحنة.
- في عدل وسيرة الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام في اليمن، حيث أقام دولة العدل وطبّق أحكام القرآن.
- في جهاد وعلم الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام

ومؤلفاته القيمة ككتاب "الشافي" في الرد على المخالفين.

الخطوة الثانية: التمييز بين الإسلام النبوي والإسلام التاريخي

كثير مما نراه اليوم من ممارسات دينية هو نتاج "الإسلام التاريخي" الذي صاغته السلطة بعد انحراف المسار. مهمتك أن تميز:

- بين ما جاء به النبي وما أضافه الملوك لتبرير ملكهم.
- بين أحكام الدين التي أنزلها الله، وبين تأويلات السلطة.

الإمامة هي الميزان الذي تعرف به الفرق: كل ما وافق نهج الأئمة فهو من الدين، وكل ما خالفه فهو دخيل عليه.

الخطوة الثالثة: الارتباط بالمنهج لا بالشعارات.

الإمامة ليست شعاراً نرفعه، بل منهج حياة:

- عدل في المعاملة، كما كان علي لا تأخذه في الله لومة لائم.
- صدق في الحديث، كما كان الصادق لا يعرف المداهنة.
- تواضع في القيادة، كما كان السجاد يخالط الناس ويؤاكل المساكين.
- علم في العمل، كما كان الباقر يملأ المسجد علماً وحكمة.
- حزماً في الحق كما كان الإمام زيد بن علي.

اسأل نفسك كل يوم: هل أنا اليوم أقرب إلى منهج الحق

والعدل، أم إلى ما يخالفه؟

الخطوة الرابعة: البحث عن العلماء الربانيين:

الأئمة حاضرون في الهداية عبر علمائهم الذين ورثوا علمهم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((العلماء ورثة الأنبياء)).

ابحث عن العالم الذي:

- لا يخاف في الله لومة لائم.
- يقدم النص على الهوى.
- يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

تطبيقات عملية للقارئ المعاصر

التطبيق الأول: اقرأ كتاباً في سيرة الإمام علي، ليس كتاريخ جامد، بل كمنهج حياة. اقرأ كتاباً معتمداً مثل "نهج البلاغة" أو "لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار".

التطبيق الثاني: استمع لمحاضرة عن واقعة كربلاء لفهم الدروس: كيف يواجه الإنسان الطغيان وهو وحده؟ كيف تكون الشهادة انتصاراً؟

التطبيق الثالث: اختر عالماً واحداً تثق به وتتابعه. ابحث عن عالم يلتزم بالمعايير التي ذكرناها، واجعل له مجلساً تسمعه أو تقرأ له.

التطبيق الرابع: اسأل نفسك كل مساء سؤالاً واحداً: "هل

أنا اليوم أقرب إلى منهج الحق والعدل، أم إلى ما يخالفه؟"

وقفة تأمل

خذ نفساً عميقاً الآن.

تخيل أنك تقف على شاطئ البحر، وسفينة نجاة ترسو أمامك. من حولك أناس يتجادلون: هل هذه السفينة حقيقية؟ وهل النجاة فيها أم يمكن السباحة وحيداً؟

البحر يموج بالأمواج، والطوفان قادم لا محالة. السفينة أمامك، والباب مفتوح.

السؤال ليس: هل هذه السفينة حقيقية أم لا؟ السؤال هو: هل ستركبها أم ستتركها وتراهن على قدرتك على السباحة؟

هذا هو موقعك اليوم بعد هذه المباحث. النصوص واضحة، والحجج قوية، والتاريخ شاهد. ولكن يبقى القرار النهائي بيدك وحدك.

تنبيه هام

من أراد الاستزادة والاطلاع على الأدلة الكاملة، وأسانيدها ورواتها ومصادرها من كتب الفريقين، فعليه بكتاب "لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار" للإمام الحجة المجدد للدين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي عليه السلام. فقد جمع فيه من الشواهد والبراهين ما يضيق به المجال عن ذكره هنا، صاحب القسم الشهير الذي قال فيه:

قَسَماً بالله الْعَلِيِّ الْكَبِيْرِ، قَسَماً يَعْلَمُ صِدْقَهُ الْعَلِيْمُ الْخَبِيْرُ، أَنْ لا غَرَضَ وَلا هَوَىٰ لَنَا غَيْرَ النُّزُوْلِ عِنْدَ حُكْمِ الله، وَالْوُقُوْفِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ أَمْرِهِ، وَأَنَّا لَوْ عَلِمْنَا الْحَقَّ فِي جَانِبِ أَقْصَى الْخَلْقِ مِنْ عَرَبِيٍّ أَوْ عَجَمِيٍّ أَوْ قُرَشِيٍّ أَوْ حَبَشِيٍّ لَقَبِلْنَاهُ مِنْهُ، وَتَقَبَّلْنَاهُ عَنْهُ، وَلَمَا أَنِفْنَا مِنْ اتِّبَاعِهِ، وَلَكُنَّا مِنْ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ وَأَتْبَاعِهِ؛ فَلْيَقُلِ النَّاظِرُ مَا شَاءَ، وَلا يُرَاقِبْ إلاَّ رَبَّهُ، وَلا يَخْشَ إلاَّ ذَنْبَهُ؛ فَالْحَكَمُ اللهُ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُوْرُ.

تم المبحث السادس بحمد الله.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بهذا نكون قد أنهينا رحلتنا في البحث عن الحقيقة، متخذين من العقل دليلاً، ومن النص نوراً، ومن التاريخ عبرة.

وقد تبين لنا أن الإمامة ليست بدعة ولا خياراً بشرياً، بل هي امتداد طبيعي للنبوة، وعهد إلهي لحفظ الدين، وسفينة نجاة لمن ركبها.

وأن النصوص على ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام لم تكن غامضة ولا قليلة، بل هي متواترة واضحة، لكن الهوى والمصالح هي التي حجبت البصائر عن رؤيتها.

فمن أراد الهداية فليتبع النص، ومن أراد التيه فليتبع الهوى.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

تمت الرسالة بحمد الله وعونه

الفهرس

المقدمة ٥
المبحث الأول: الله الحكيم لا يخلق عبثًا.. والقيادة ضرورة فطرية٧
معنى الحكمة: ٧
الحكيم لا يخلق عبثًا..... ٨
القيادة ضرورة فطرية كونية ٨
حاجة الإنسان إلى الهداية.....١٠
الرسالات الإلهية ١١
هداية مستمرة لبشرية متجددة.....١١
خلاصة المبحث ١٢
السؤال الذي ينتظر إجابة ١٣
المبحث الثاني: شمولية التشريع واستمرارية النظام.. واصطفاء الله لقيادة الهدى ١٤
الشمولية: مقتضى العناية الإلهية.....١٤
تناسب الأهمية مع العناية ١٤
حفظ المنهج: من "النص" إلى "التطبيق".....١٥
سنن الله في اصطفاء الأسر.....١٦
بني إسرائيل ١٧
الاصطفاء الإلهي بالتهيئة والتأهيل ١٨
قاعدة: "اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي".....١٨
من مظاهر هذا التأهيل:.....١٨

أثر البيئة والمال في تكوين القابلية..... ١٩
طعن الخصوم في النسب الطاهر.. حيلة قديمة ١٩
دلالة السقيفة – اعتراف بضرورة القيادة ٢١
من يعرف الحق لا ينكره إلا حسداً ٢١
خلاصة المبحث ٢٢
السؤال الذي ينتظر إجابة ٢٣
المبحث الثالث: مواصفات القائد والتعيين الإلهي ٢٤
أولاً: هل يُعقل أن يفرّط النبي فيما حرص عليه الملوك؟ ٢٤
ثانياً: المؤهلات هي التي تفرض القائد ٢٥
السابقية والتحمل ٢٥
غزارة العلم ٢٥
المؤهل الملكي (الشجاعة) ٢٥
الوراثة النبوية وسنن الأنبياء ٢٦
استمرارية السنن الإلهية..... ٢٦
ثالثاً: لماذا حدث الاعتراض؟ ٢٦
نظرة الآمر أم نظرة المأمور به؟ عبرة من قصة إبليس..... ٢٧
خلاصة المبحث ٢٨
السؤال الذي ينتظر إجابة ٢٩
فصل مستقل: الدلالة النقلية المتواترة على الامتداد الرسالي ..٢٩
(غدير خم نموذجًا) ٢٩
حديث الغدير ٣٠

إثبات تواتر الحديث ٣١
التحليل السياقي.....٣٢
ارتباط الحديث بآيات قرآنية.....٣٣
الأولى: آية التبليغ ٣٣
الثانية: آية إكمال الدين ٣٣
الربط بالدليل العقلي.....٣٣
المبحث الرابع: الانحراف الكبير.. من الخلافة النبوية إلى الملك العضوض.....٣٥
الصدمة الواقعية.....٣٥
ثانياً: استخدام المخاوف القبلية ٣٧
ثالثاً: المشهد الأكثر تعقيداً: سقيفة بني ساعدة ٣٨
رابعاً: مفارقة مفاتيح الكعبة.....٤٠
خامساً: النتائج التاريخية للتحول السياسي ٤١
واقعة كربلاء (٦١ هـ):.....٤٢
وقعة الحرّة (٦٣ هـ): ٤٣
توسع مظاهر الترف السياسي:.....٤٣
خلاصة المبحث ٤٤
السؤال الذي ينتظر إجابة ٤٥
المبحث الخامس: مواجهة النص.. هل المشكلة في الدليل أم في الهوى؟.....٤٦
المحاكمة المنطقية: حصر الخيارات ٤٦

حديث الغدير ٤٧
حديث المنزلة..... ٤٨
حديث الثقلين..... ٤٨
آية الولاية ٤٩
حصر الاحتمالات: الطريق إلى النتيجة..... ٥٠
سؤال يكشف معيار الإنصاف ٥١
الإمامة: عهد إلهي لا يسقط بالانحراف ٥٦
شبهة أخرى: لماذا لم ينتصر الأئمة سياسياً؟ ٥٧
خاتمة المبحث..... ٥٧
المبحث السادس: الإمامة.. الامتداد الطبيعي للنبوة..... ٥٩
الطريق إلى الخاتمة ٥٩
سفينة النجاة في زمن العباب ٥٩
أولاً: الإمامة امتداد للنبوة ٦٠
ثانياً: حضور الإمامة في غياب السلطة..... ٦١
١. حفظ العلم النبوي: ٦١
٢. التربية الروحية والأخلاقية: ٦١
٣. ضبط البوصلة في زمن العواصف: ٦٢
ثالثاً: الرؤية الزيدية في الإمامة..... ٦٢
رابعاً: لماذا النص على علي خاصة؟ ٦٣
خامساً: أربع خطوات عملية للارتباط بالإمامة..... ٦٤
الإمامة ليست شعاراً نرفعه، بل منهج حياة: ٦٥

تطبيقات عملية للقارئ المعاصر.....٦٦
وقفة تأمل ٦٧
تنبيه هام.....٦٧
الخاتمة ٦٩
الفهرس.....٧٠

لماذا علي؟
قراءة في ضوء العقل والنص والتاريخ